

الفصل الحادى عشر

تنظيم الحقائق التاريخية

اختيار الحقائق - تقسيمها - مثال للتقسيم العام - أساس التقسيم - التفرع ببعض الأسئلة - تحديد البدء والنهاية - مثال من تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى : من يوليو سنة ١٧٨٧ إلى يوليو سنة ١٧٩٠ - مجموعات الحقائق المختلفة - إبراز محور الحوادث - إظهار تطور المجتمع - بعض أمثلة .

يصل الباحث فى التاريخ إلى مرحلة تنظيم أو ترتيب الحقائق التاريخية التى تجمعت لديه . ومن غير شك ينبغى عليه أولاً أن يفاضل بينها وأن يستمسك ببعضها ويدع جانباً بعضها الآخر . وفى الواقع أن كل الحقائق التاريخية لها قيمة فى حد ذاتها ، ولكن الباحث مضطر إلى اختيار جزء منها لاستخدامه فى كتابة التاريخ . والحقائق التى يتركها جانباً تساعده - وإن لم يبرزها - على فهم كثير من مسائل التاريخ . ويمكن للباحث أن يختار الحقائق على أساس موضوعه أو اتجاهه إلى الكتابة فى الناحية التى تعنيه ، سواء أكانت ناحية سياسية أم اقتصادية أم عسكرية أم دينية أم ثقافية . . .

وينبغى على الباحث أن يشرع فى تنظيم الحقائق التاريخية وتنسيقها فى مجموعات وأقسام . تبعاً لظروفها الظاهرة ولسائر خصائصها . وأسهل طريقة للتقسيم هى القائمة على ظروف الحقائق الخارجية . إذ أن كل حقيقة تاريخية ترتبط بزمان ومكان محددين ، وتعلق برجل أو بجماعة أو بمسألة معينة ، وبذلك يجد الباحث أمامه مجموعات من الحقائق المتنوعة . ثم عليه أن يأخذ فى تقسيم هذه المجموعات إلى أقسام فرعية . ويرتبها ترتيباً زمنياً أو مكانياً ، أو بحسب المجموعات التى تنتمى إليها . وقديماً كانت الحقائق تُذكر بغير ترتيب ، فكان ليثى وتاسيتوس مثلاً يخلطان الحقائق الخاصة بالفيضان والأوبئة بأخبار الحروب والثورات ، وكذلك فعل مؤرخو سائر الأمم .

ولم تُقسَّم الحقائق تبعاً لطبيعتها وخصائصها إلا فى زمن متأخر . والقاعدة المتبعة فى هذا التقسيم ، هى اختيار الحقائق المتعلقة بنوع واحد من الأفعال ووضعها

في قسم واحد . وكلُّ من هذه الأقسام يُصبح موضوعاً لفرع معين من التاريخ - وهناك بعض ما ورد في كتاب لانجلوا وسينيوبوس بشأن تقسيم الحقائق التاريخية بناء على الظروف الخارجية ، وعلى طبيعة الحقائق وخصائصها ، وارتباطها بمظاهر النشاط الإنساني :

١ - الظروف المادية :

(أ) دراسة الجسد : علم الإنسان (الأنثروپولوجيا) والتشريح وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم السكان من حيث العدد والجنس والتوالد والوفيات والأمراض .
(ب) دراسة البيئة : البيئة الجغرافية الطبيعية وعمل الإنسان مثل الصناعة والزراعة والطرق والمباني . . .

٢ - العادات العقلية :

(أ) اللغة وما يتصل بها من الكتابة والألفاظ وعلم الأصوات وعلم المعاني .
(ب) الفنون التشكيلية كالرسم والتصوير والنحت وفنون العمارة والفنون التعبيرية كالآداب والموسيقى والرقص .
(ج) العلوم : مناهجها ونتائجها .
(د) الفلسفة والأخلاق نظرياً وعملياً .
(هـ) الدين بما فيه من العقائد والشعائر .

٣ - العادات المادية :

(أ) الحياة المادية بما فيها من الغذاء والملبس وأدوات الزينة والمساكن والأثاث .
(ب) حياة الإنسان الخاصة كالعناية بالجسد والمراسم الاجتماعية في الزواج والوفاة والأعياد ووسائل اللهو والتسلية .

٤ - العادات الاقتصادية :

(أ) لإنتاج في الزراعة وفي تربية الحيوان واستغلال المعادن .
(ب) الصناعة وتقسيم العمل ووسائل النقل .
(ج) التجارة والتبادل .
(د) التوزيع : نظام الملكية وما يتصل بها .

٥ - النظم الاجتماعية :

- (أ) الأسرة ، تكوينها والسلطة الأسرية وأحوال النساء والأبناء والتنظيم الاقتصادي في الأسرة وملكية الأسرة والميراث فيها .
- (ب) التعليم ، فرصه ووسائله والقائمون به ، العلوم والفنون والآداب والثقافة .
- (ج) طبقات المجتمع وأساس تقسيمه والقواعد التي تنظمه .

٦ - النظم العامة :

- (أ) النظم السياسية - الحكومة والإدارة المالية ، الهيئات المنتخبة وطريقة انتخابها وسلطتها ، الهيئة القضائية ، القوة العسكرية ، الأعمال العامة ، المواصلات ، الشؤون الصحية ، القوانين المحلية .
- (ب) الهيئات الدينية وما يتصل بها .
- (ج) النظم الدولية ، الدبلوماسية ، الحرب والسلام ، القوانين الدولية والتجارية * .
- ويلاحظ أن هذه التقسيمات لا تكون مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال ، إذ هي متداخلة فيما بينها . ففي العرض التاريخي - وهو ما سندكر شيئاً عنه بعد - نجد مسائل جغرافية أو اجتماعية أو سياسية أو أدبية أو اقتصادية . . . متصلة بعضها ببعض . ويتضح فيها الأثر المتبادل بينها ، بحسب الموضوع الذي يتناوله الباحث في التاريخ . وإذا لم يكن الباحث راغباً في دراسة هذه المسائل كلها على قدم المساواة ، فإنه في هذه الحالة يجعل بحثه منصباً على مسألة بعينها ، فيتوسع ويتعمق فيها ، جاعلاً من المسائل الأخرى المتصلة بها وسيلة إلى فهم وإيضاح المسألة الخاصة التي يجعلها هدفاً لدراسته .

وحيثما يشرع الباحث في تنظيم وترتيب الحقائق التاريخية التي اجتمعت لديه ، تبدو أمامه مسألة جديرة بالعناية . فكل عمل إنساني هو بطبيعته ظاهرة مفردة ترتبط بزمان ومكان محددين . وبمعنى آخر فإن كل حقيقة أو كل حادث تاريخي هو حادث قائم بذاته وله مميزاته وظروفه الخاصة . ولكن يلاحظ من ناحية أخرى أن كل عمل إنساني يشبه في الوقت نفسه أعمالاً أخرى للشخص ذاته ، أو يشبه أعمال رجال آخرين ينتمون لنفس بيئته ، وقد يبلغ التشابه درجة تجعل هذه الأعمال

تتصف بصفات واحدة ، حتى لتفقد مُشَخَّصاتها كأعمال مفردة قائمة بذاتها .
وهذه المجموعات من الأفعال المتشابهة يمكن أن تسمى بالعادات أو العرف أو النظم ،
والتي هي حقائق جماعية تمتد في الزمان والمكان .

وعلى ذلك ينبغي أن تُدرس الحقائق وتنظَّم على أساسين : على أساس العناصر
المفردة القائمة بذاتها ، وعلى أساس عناصرها الجماعية المستمرة . وكلتا الناحيتين
ضرورية . إذ لا بد من الجمع بين الحوادث العامة والحوادث الخاصة المعينة .
فمثلا لا يمكن فهم تاريخ النظم الفرنسية ، إذا اقتصر الباحث على دراسة الحوادث
أو التيارات العامة . دون دراسة سقوط الباستيل مثلا . والعكس صحيح .

وينبغي على الباحث في التاريخ أن يلاحظ أوجه الشبه والخلاف بين الجماعات
الإنسانية ، ولا يجعل تنظيمه وتقسيمه للجماعات قائمًا على التشابه السطحي .
بل ينبغي عليه أن يتبين على وجه الدقة طبيعة كل جماعة بعينها : فما أوجه الشبه
بين أفراد الجماعة الواحدة ؟ وما الصلة التي ربطت بينهم ؟ وما الآراء أو العادات
التي سادت بينهم ؟ وما أوجه الخلاف ؟ فالبروتستانت مثلا تجمعهم رابطة واحدة
بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنهم ينقسمون فيما بينهم إلى طوائف من أتباع
لوثر أو كلفن أو زوينجلي . . . واللغة الواحدة مثلا تنقسم إلى لهجات ، ولبعضها
قيمة أدبية خاصة ، والدولة الواحدة تنقسم إلى مقاطعات . . . ففي مثل هذه المسائل
يلاحظ الباحث الصفات العامة المشتركة التي تكوّن فيما بينها وحدة أو رابطة عامة ،
فضلا عن ملاحظة الخصائص الجزئية المميزة لكل فرع أو شعبة من هذه الرابطة
العامة الجامعة .

وتقتضى دراسة النظم مثلا التدرّج ببعض الأسئلة . لكي توضح بعض المسائل
المتعلقة بالأشخاص ووظائفهم . وفيما يتعلق بالنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ينبغي
على الباحث في التاريخ أن يعرف تقسيم الطبقات التي وُجدت . وكيف تكوّن
كل طبقة . وما وظائف كل طبقة منها ؟ وما العلاقة بين أفراد الطبقة الواحدة ،
وبين كل طبقة وأخرى ؟ وعلى هذا الأساس تُنظَّم الحقائق التاريخية المتعلقة
بهذه النواحي ، تمهيدا للعرض التاريخي .

وفيما يتعلق بنظم الحكم مثلا ينبغي أن يتدرّج الباحث في التاريخ بسلسلتين

من الأسئلة :

- ١- مَنْ الذين كانوا أصحاب السلطة في زمن معين؟ وهل كانت السلطة في يد أفراد قلائل أم كانت موزعة في أكثر من ناحية ، وإلى أى مدى؟ وينبغي على الباحث أن يعرف هذه النواحي سواء أكانت قليلة أم كثيرة ، ويحلل هيئة الحكومة في أقسامها وفروعها المختلفة ، من كبار الموظفين وأعاونهم وموظفي السلطة المركزية والموظفين المحليين . وينبغي عليه أن يبحث كيف كان يُجمع أو يُختار أولئك الموظفون ، وماذا كانت سلطتهم الرسمية ، وماذا كانت سلطتهم الفعلية؟
- ٢- ماذا كانت القوانين واللوائح الرسمية؟ وماذا كان مضمونها؟ وكيف كانت تطبق هذه القوانين؟ وإلى أى حد روعيت نصوص القوانين وروحها؟ وهل خولفت القوانين ، وهل حدث تلاعب واحتيال واستثناءات لمنافع وأهواء شخصية؟

وبعد تحديد كل الحقائق المتعلقة بمجتمع ما - إذا كان موضوع الباحث هو دراسة أحد المجتمعات - يبقى على الباحث أن يحدد الحقائق التي تضع هذا المجتمع بين المجتمعات الأخرى المعاصرة ، فيدرس الحقائق المتعلقة بالنظم الدولية والسياسية والاقتصادية ، ويتبين النظم والعادات التي انتشرت بين أكثر من جماعة أو دولة واحدة ، ويرتب الحقائق التاريخية المتعلقة بها لإيضاح ما هو بصدد دراسته .

ولتُدرس بعض الأمثلة المعينة التي توضح طريقة تنظيم الحقائق التاريخية . ومن المهم في هذا التنظيم تحديد الموضوع أو المسألة التاريخية التي يكتب عنها الباحث ، بحسب الحقائق التي اجتمعت لديه ، وإن خالف ذلك تصوره للموضوع عند بدء بحثه . فيوضع بدء ونهاية للحقائق التي يرغب في تنظيمها وترتيبها في ذلك النطاق . وأحياناً يكون تحديد نهاية الموضوع أيسر من تحديد بدئه .

وكما أشرنا إليه من قبل ، نلاحظ أنه باستمرار الباحث في الاطلاع والدرس يصبح أكثر دراية بموضوعه ، والأدلة التي كان يعدّها في أوائل بحثه هامة وجوهرية ، ربما تقل أهميتها أو تسقط . لظهور حقائق وأدلة أكثر أهمية ، والعكس صحيح .

وإذا أردنا مثلاً أن نبحث تاريخ تأسيس الإمبراطورية الألمانية الحديثة ونشأتها ، فإننا نستطيع بسهولة أن نحدد تاريخ وصول هذه الحركة إلى أوجها ، أى عند إعلان الإمبراطورية الألمانية عقب انتصار ألمانيا على فرنسا في حرب السبعين . ولكن ليس من السهل علينا أن نحدد متى بدأت هذه الحركة . ويمكننا أن نتعقب حوادث الماضي حتى سنة ١٨٤٩ . سنة الثورات في أوروبا ، كما يمكننا أن نرجع إلى الوراء أكثر من هذا . أى إلى انتصار نابليون بونابرت على بروسيا في بينا في سنة ١٨٠٦ ، ويقظة الروح القومية في بروسيا والولايات الألمانية على أثر تلك الهزيمة ، وما ترتب على ذلك من تنظيم الشعب البروسى والألماني لاسترداد حريته . ثم تطلعه إلى النمو والاتساع وتكوين الإمبراطورية الألمانية الحديثة . ولنأخذ مثلاً آخر أكثر تحديداً وليكن من تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى . كما أورده الأستاذ فيلنجر .

ولنضع تحديداً للفترة الواقعة بين يوليو سنة ١٧٨٧ ويوليو سنة ١٧٩٠ . التاريخ الأول هو التاريخ الذى طلب فيه برلمان باريس اجتماع مجلس طبقات الأمة ، الذى لم يُدع إلى الاجتماع منذ عهد لويس الرابع عشر . والتاريخ الثانى عبارة عن تاريخ اجتماع حدث فى ساحة مارس* فى باريس ، حيث قدمت إليها وفود من كل أنحاء فرنسا ، وأقسمت بالمحافظة على الدستور الذى وضعته الجمعية الوطنية . وتنقسم هذه الفترة التاريخية قسمين : القسم الأول يمتد من يوليو سنة ١٧٨٧ حتى يوليو سنة ١٧٨٩ ، ويتعلق بتاريخ مجلس طبقات الأمة وبتحوله إلى الجمعية الوطنية . وانتهى ذلك بثورة ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ . والقسم الثانى ومدته سنة واحدة . حدث فيه إلغاء امتيازات النبلاء وإعادة تنظيم فرنسا وتدعيم وحدتها . نلاحظ أن ترتيب الوقائع التاريخية الخاصة بالقسم الأول أكثر سهولة من ترتيب الوقائع التاريخية الخاصة بالقسم الثانى . وحوادث القسم الأول هى من نوع واحد بصفة عامة . على حين أن حوادث القسم الثانى تتكوّن من أنواع مختلفة . فلكى يسهل العمل على الباحث ، يلزمه أن يقسم حوادث القسم الثانى إلى مجموعات الحقائق التى يتكوّن منها .

فالمجموعة الأولى هي مجموعة الحوادث السياسية ، وتنقسم إلى الفروع الآتية :

- ١ - سياسة الملك والبلاط وإزاء الثورة .
- ٢ - سياسة نكسر وجماعته .
- ٣ - محاولات أعضاء الجمعية الوطنية تأليف الوزارة .
- ٤ - عمل الجمعية الوطنية في تنظيم فرنسا وحكمها .
- ٥ - تطبيق الدستور الجديد .

والمجموعة الثانية هي مجموعة الوقائع الاقتصادية وتنقسم إلى الفروع الآتية :

- ١ - حقوق أمراء الإقطاع .
- ٢ - الحالة المالية .
- ٣ - الكنيسة وأملاك الدولة .
- ٤ - التمويل .
- ٥ - المتعطلون .

والمجموعة الثالثة هي مجموعة الوقائع الدينية . وتنقسم إلى الفروع الآتية :

- ١ - إلغاء هيئة رجال الدين كنظام قائم بذاته .
- ٢ - إلغاء الأديرة .
- ٣ - مصادرة أملاك الكنيسة .
- ٤ - القانون المدني الذى وُضع لرجال الدين .
- ٥ - علاقة فرنسا بالبابوية * .

وقد تنقسم هذه الفروع إلى فروع للفروع بحسب الضرورة . وتدرس كل هذه الفروع وفروع الفروع على أنها أجزاء من أقسام أكبر . ومن هذه الحقائق المقسمة يتكوّن التاريخ الذى يؤلفه الباحث فى التاريخ .

وعلى الباحث أن يبرز الحقائق التى يدور عليها محور الحوادث التى يتناولها . فإذا أراد أن يكتب مثلاً عن تاريخ مجلس طبقات الأمة حتى ثورة ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ . فإن اهتمامه يتجه أولاً نحو فرساي ثم ينتقل إلى باريس ثم إلى فرنسا كلها وهكذا . فعليه أن يرتب الحقائق على هذا الأساس ، وينظم الحقائق المتعلقة

بمحوادث الثورة في باريس ، ثم ينتقل إلى بيان أثر الثورة في أنحاء فرنسا ، لأن محور الحوادث انتقل إليها ، حيث ثار الفلاحون على أمراء الإقطاع ، وترتب على ذلك القضاء على بقايا النظام الإقطاعي ، وانتهى الأمر بإلغائها في ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ . ثم تصبغ فرساي مرة أخرى مركزاً للحوادث حينما أخذ رجال الثورة يحثون في هل يعطون الملك حق رفض القوانين ؟ وهذه مسألة من أهم المسائل التي واجهتها الثورة الفرنسية في ذلك الوقت . وتبع ذلك الظروف التي أدت إلى حوادث ٦ و٥ أكتوبر من السنة ذاتها .

وهنا ينبغي على الباحث أن يدرس بعض النقط الهامة . مثل مسألة الأغذية . ومؤامرات البلاط ، والحركة الرجعية التي ظهرت في الجمعية الوطنية ، مما جعل سكان باريس لا يثقون بموقف الملك من الثورة . ورأوا ضرورة إقامته في باريس حتى لا يجد الفرصة للتآمر على الثورة . ويضاف إلى ذلك ما أصاب أهل باريس من الجوع لقلة الخبز ونقص المواد الغذائية ، فأدى ذلك إلى إثارة الشعب واندفاع الطبقات الفقيرة نحو فرساي لحمل الملك على الانتقال إلى باريس في ٥ و٦ أكتوبر سنة ١٧٨٩ . فينبغي على الباحث في كل مرحلة من هذه المراحل أن يركز اهتمامه على المحور الذي تدور عليه الحوادث .

ومما هو جدير بالذكر أنه حينما يجمع الباحث الحقائق ويقوم بتنظيمها . عليه أن يحرص على إبراز التغيرات التي ربما تكون قد طرأت على المجتمع في الفترة التي يتناولها . وظروف المجتمع خاضعة لعوامل التغيير من عصر إلى آخر ، حتى لو ظهرت أنها ثابتة . وقد يكون التغيير تقدمياً أو تأخراً وانحلالاً . ولكي يفهم الباحث طبيعة هذا التغيير — أو التطور — عليه أن يتدرع ببعض الأسئلة التي يتوصل بها إلى معرفة حالة المجتمع في عصر معين ، ويبحث أسباب التطور الذي طرأ على الحوادث والتقاليد والحكومة والشعب . . . وظروف ذلك التطور ومداد .

ويمكننا أن نضع العمليات التي تساعدنا على فهم التطور الذي يلحق بالمجتمع الإنساني . على النحو التالي :

١ - تحديد الحقيقة التي يدرسها الباحث تطورها .

٢ - تحديد الزمن الذي حدث خلاله التطور .

٣ - تحديد أدوار التطور ومراحله .

٤ - بحث العوامل التي أحدثت ذلك التطور .

٥ - تحديد النتائج التي ترتبت عليه وأثرها في المجتمع الإنساني .

ومن الواضح أن التطور التاريخي لا يحدث نتيجة للقوانين والقواعد المجردة فحسب ، بل يحدث نتيجة للحياة العملية الواقعية . ويتأثر بعوامل متنوعة ، ويخضع أحياناً لظروف طارئة لم تكن في الحسبان . وعندما يطرأ تغيير على عادة ما ، على اللغة أو على الدين أو على نظام الحكم في ظروف الحياة المألوفة . فإن هذه العادات أو النظم لا تتغير من تلقاء نفسها ، بل الذي يتغير أولاً هم الناس الذين يمارسون هذه العادات ويُطبِّقون هذه النظم . كما أن العادات أو النظم ربما تصبح غير ملائمة للمجتمع فيعمل الإنسان على تغييرها . ويضطر الباحث أحياناً إلى ملاحظة بعض الحقائق المفردة ، لأنها توضح أصل اتجاهات خاصة في المجتمع ، وتعدّ نقطة البدء لأنواع مختلفة من التطور التاريخي .

فينبغي على الباحث في التاريخ أن يدرس العوامل المختلفة المتداخلة ، التي تؤثر في المجتمع الإنساني ، ويضع كل مجموعة من الحقائق في زمانها ومكانها ، على اتساق وتوافق ، في سلسلة التطور الإنساني . وأحياناً يكون التطور أسرع في ناحية منه في سائر النواحي ، في ناحية السياسة أو الاقتصاد أو العلم أو الفن أو الأدب . . . فعليه أن يوضح هذه الناحية الخاصة - إن وجدت - مع دراسة سائر النواحي التي ترتبط بتيار التطور الأساسي .

ومن الأمثلة على ذلك ما أحدثته غارات البرابرة على الإمبراطورية الرومانية من التغيير في حياة الشعوب التي خضعت لها . في اللغة أو النظم السياسية أو في حياة الناس الخاصة أو في الاقتصاد أو في الفن . . . ونحن لا يمكننا دراسة تاريخ النظم الفرنسية وتطورها ، إذا لم ندرس الأثر الذي أحدثته فتح يوليوس قيصر لبلاد الغال ، وأثر غارات البرابرة عليها . التي كانت من أهم العوامل في نشأة فرنسا الحديثة

فينبغي على الباحث في التاريخ أن يُنظِّم الحقائق التاريخية التي تقع تحت يده ، على النحو الذي يُمكنه من أن يضعها في السياق التاريخي الملائم .